

وائل نيل

حِكَايَاتُ الْبُعْدِ وَاللِّقَاءِ

عن كل التفاصيل والأمنيات وما بقي بعد الوداع

حكايات البعد واللقاء

وائل نيل: حكايات البعد واللقاء، كتاب

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٠

رقم الإيداع: ٢٨٤٧٣ / ٢٠١٩ - الترقيم الدولي: 6 - 223 - 806 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوْن

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

وائل نيل حكايات البعد واللقاء



إهداء

إلى كل طرقات البُعد التي جمعت شخصين وقت الوداع، إلى أوقات الفراق المُتعبة،
والخوف من الذكريات، إلى مشاهد النهايات الحزينة في الأفلام، ومقاطع الأغنيات التي
التصقت بجدران قلوبنا، ورعشة أصواتنا عند الفراق.

إلى أسى انفلات أيادينا، والالتفاتة الأخيرة بعد كلمة سلام، والدمعة التي هربت رغم
محاولات التماسك والادعاء.

إلى كل التفاصيل والأمنيات الحزينة، وكل ما بقي بعد الوداع.

مقدمة

كل الأماكن التي ذهبها تركت بي شيئاً، كل العابرين من قلبي تركوا به شيئاً، كل الخيبات كانت توقظ بداخلي أمراً كنت أجهله أو أتجاهله، كل الانتصارات كانت تصل لعمق نفسي مهما بدت بسيطة، كل الذين مروا في حياتي لهم أثرٌ باقٍ، يملؤون مساحات الذكريات ببؤسها وسعادتها، الذين تخلوا والذين بقوا، والذين رحلوا وعادوا، أتذكرهم جميعاً رغم سرعة السنوات وزحام الأيام حتى لو لم أذكرهم في حديث عابر عن الأمس، كل الذي استعصى على النسيان، وكل الذي هان، كل الذي كان بقي منه شيءٌ بداخلي.

الحياة ممتلئة بالتفاصيل الدقيقة والمُتعبة، ممتلئة بالحكايات التي انتهت برسالة وداع، كلمتين وصمت، نظرة وأسف، بنقطة نهاية حتمية وصلنا لها، فراق حدث بالاختيار، أو بالإجبار، رسائل كانت تصدمنا قرأناها بأعيننا، أو في عيون الآخرين، بأماكن فارقتها مضطرين، وطرقٍ بدلنا عنها خطواتنا كُنَّا نأمل في الوصول لنهايتها، بأمنيات ودعناها رغم محاولات التمسك.

ويسألونك كم ودّعت؟ وكم ودعك؟ وكم إجابة تعرفها عن الرحيل؟ وفي قلبك إجابات وأرقام ومتاعب عشتها عند نقاط الوداع.

ونحن لا نخاف من النهايات بقدر ما نخاف مما بعدها، متاعب الذكريات، ووداع الأيام الماضية، محاولات التخطي والنسيان، والخطوات التي تثقل بالأسئلة والأمنيات المستعصية، نخاف من تداعيات الأمس في قلوبنا، من تلك المشاهد التي لا تفارق أعيننا بسهولة، من شعور الهزيمة والانكسار، نخاف وترهقنا خيانات البشر أكثر ما ترهقنا بقايا وجودهم، ترهقنا خيانات الوعد بعدما كُنَّا نمشي بثقة قلب لا يخاف ولا يبالي بالأيام وتقلباتها.

نخاف من الضعف، وخطوات البعد والغياب، وأشياء عن الأمس تهز أرواحنا من الأعماق.

كيف يحدث البعد الأخير؟

هل تدرك معنى التراكمات؟ تلك الأمور التي تبدو تافهة، البسيطة التي تعتقد واثقًا بكل اليقين أنك قادر على محوها وتجاوزها دون مجهود، أنها بلا جدوى، بلا وجود يُذكر، وهي في المقابل تتعاضم في قلبك وتمتد، فتخسر أحدهم بتراكمات الأيام، تحزن، تحزن بشدة بتراكمات يحملها قلبك ولا تعرف سببًا واضحًا، تدخل في نوبة الأحزان ومآسيها بأشياء رأيتها في وقت ما بسيطة وغير مهمة، التراكمات تؤذي ببطء، وقسوة.

كنت أتعجب من حكايات المُحبين التي بدأت بوعود البقاء وكفاح التمسك وفي النهاية تنتهي بالفراق، بسهولة تامة يتجه أحدهم في طريق معاكس غير مبالٍ، يعتبر ما فات ذكرى أو مجرد تجربة، كنت أتعجب كيف لتلك الحكايات أن تبدو مجرد تجربة، ومع الأيام أدركت أنه لا مكان للتعجب في هذا، فالحب يحدث بسهولة، تقابل أحدهم صدفة في طريق فيقع في حبك، ومع ذلك قد ينتهي بسهولة أيضًا، ربما نحب بصدفة ما، لكننا نستمر بالأفعال الصادقة، واليقين الراسخ في قلوبنا، نزداد حبًا بأشياء قد لا تكون منطقية، لكنها صادقة.

وفي المشاعر الإنسانية البدايات دائمًا سهلة، الصعوبة فيما يُبنى عليها، نقترّب بسهولة مُطلقة، ونرى في الاستمرار ربما الصعوبة، صعوبة التخطي، والتحمل، والتقبل، تقبل العيوب، وفي المعادلة الصعبة قد يحدث البُعد الأخير دون محطات تدريجية، نفقد كل تلك الأركان التي كانت تحمينا من السقوط واحدًا تلو الآخر، نجد أنفسنا فجأة أمام صعوبة العودة، بمعنى أدق استحالة العودة، ولسوء الحظ يحدث هذا دون توقع، لا نشعر بالتدريج، تفاهات تلو الأخرى، تخطّ تلو الآخر، تسامح تلو الآخر، ثم بُعد أخير، بُعد نكافح لتفاديه، نكافح مع أنفسنا للعودة، لكنه لسوء الحظ يحدث.

البعد الأخير تتراكم بداخله مواقف عديدة لم نتخطاها، لم نمح لأنفسنا فرصة الحديث فيها وهي في المقابل تُمنح فرصًا عديدة كي تكبر بداخلنا، وللوم في هذا فائدة حين نُفرغ

ما بداخلنا فلا ندع مساحات للتراكمت والتكهنات والافتراضات التي تطرحها أنفسنا.

والبعد ليس عن الآخرين فقط، فيحدث أن نبعد عن أنفسنا، وبعد مسافات طويلة كنا نمشيها في طرق خاطئة تزداد بيننا وبين أنفسنا المسافات، وعند نقطة ومرحلة ما نتساءل كيف وصلت إلى هنا؟ وصلت إلى بؤرة يأس عميقة كانت بدايتها نقطة سطحية، لخسارات كبيرة بدأت بأشياء تافهة، وصل قلبك لنقطة الحزن الذي يحدث بأسباب تبدو عادية وليست عادية بما تخبئه، أشياء كانت بعيدة عنك وأصبحت جزءًا من شخصيتك.

تكتشف فجأة تلك الأشياء التي كانت تتراكم بداخلك لتجعلك سريع الحزن والانفعال، وأنت كنت تتجاهل العتاب بمحبة للقريبين في حياتك حتى انفجرت في وجههم بجملة «أنا ساكت من زمان»، إنك كنت تبعد بخطوات بسيطة واكتشفت فجأة أنك بعدت جدًا، كنت تضع نفسك في حيز الانشغال بأشياء ربما كانت مهمة وتتجاهل أمورًا أهم، مسكينًا كنت وأنت تكتشف حجم الخسارة التي خسرتها في مقابل مكاسب بسيطة، مكاسب انتهت بكل بساطة، وأنت تكتشف كيف دفعت الآخرين للنقطة التي يصعب، أو يستحيل عندها العودة.

قلوبنا تسع كل التفاصيل، فلا ننسى شيئًا، لا ننسى تلك التفاصيل التي صنعت مسافات بُعد قد لا نعود بعدها لنفس النقطة ثانية، التفاصيل التي نعجز بعدها عن خطوة قُرب، تسع كل التفاصيل التي تبني بداخلنا أمامهم أسوارًا وجدران، قلوبنا تسع كل التفاصيل ولا يمر منها شيء بسهولة.

إذا كنت تنوي البُعد، فابتعد في البدايات، إذا كنت تشعر بحملٍ قاسٍ على قلبك فابتعد دون أن تخبر الآخر كل يوم بمقدار تحملك، وقدرة الهموم والتعب، وكيف غير وجوده شكل الحياة للأسوأ، ابتعد دون أن تُربّي بداخلهم أذىً يتضاعف حتى بعد رحيلك، دون أن تُشعرهم أن وجودهم لا يعني شيئًا؛ لأنه يعني، دون أن تخبرهم أن وجودهم في الحياة بلا قيمة؛ لأن له قيمة، فقد يكون شيء ما، أو شخص ما بلا قيمة لديك، لكنه لشخص آخر جزء من قيمة الحياة، ابتعد دون أن تترك أذىً، حاول أن تختصر مساحات التعب برحيلك.

النهايات التدريجية هي أسوأ شكل للنهايات، نهايات نجد أنفسنا أمامها دون توقع، وربما دون أمل في العودة.

وفي لحظة واحدة قد ينتهي كل شيء، لحظة واحدة فقط، فلا تعود الفرصة ولا أمنيات السماح والكلمات الأخيرة، الحياة لا تمنحنا دائماً الفرص الكافية لذلك، ولا حتى نحن نمنحها لأنفسنا.

يقل عتابنا وتبدأ فرص الرحيل، تضيق مساحات كبيرة في قلوبنا لهم، يبدو كل شيء عادياً، فلا نهتم، ولا تفرق معنا تلك الأمور الصغيرة التي كانت تحدث ضجة في أرواحنا ولا حتى الكبيرة، نبعد تدريجياً حتى يتحول وجودنا لوجود عابر يمر مع رياح مساء ما.

نهاية الحكايات التي تهدم معنى الحياة فينا ببطء، نهاية المشاوير الطويلة التي نمشيها لشخص ما ونبذل أقصى جهد دون أن يُقدَّر أو يهتم أو يشاركنا ولو خطوة واحدة ولا أي مسافة للقرب، نهاية المحاولات البائسة التي تستهلك أرواحنا فيها بأذى عظيم ونحن نمنحهم ألف أمل للتغير وهم يزرعون اليأس ببراءة في قلوبنا، نهاية الحوارات التي كان الهدف الأوحدها من يخرج منتصراً على الآخر، نهاية الحكايات التي تبعدنا عن أنفسنا، الحكايات التي لم نجد فيها أي سبب للصبر.

ونحن لا ندرك كل هذا إلا عند نقطة البُعد، البُعد الذي قد يحدث بلا حتى وداع.

* * *

حكايات ليست عابرة

كل الحكايات التي تمر بقلوبنا تُرهقنا، تأخذ من أرواحنا، القصص التي ظننتها تُحسب بالأيام، الأشخاص الذين جلست معهم وبعد ارتياح ودعتهم، وفي عينيك دمعة حبيسة، وقلبك يحمل كلامًا تمنيت لو عاد الزمن لأجله، وما فاد البكاء وما نسيت الكلام.

ألم عالق في جدار القلب بحب هؤلاء الذين نعلم تمامًا نهاية حكايتنا معهم، ورغم ذلك نصر على البقاء في الرحلة، يلاحقنا معهم صوت قطار يقترب للرحيل، نسرع خطانا لنبعد عما نسمع، فنزداد قربًا، نغلق آذاننا، نحاول قهراً أن ننسى معهم أمراً حتمياً، نحاول والحقائق لا تُنسى مهما حاولنا، مهما تجاهلنا، مهما زادنا هذا الأمر ألمًا وتعَبًا.

الراحلون الذين وضعت لهم خُطوط للنهاية، قصص الحب المنتهية منذ بداياتها، القصص الأصدق بكل ما فيها من أذى، القصص التي كان يعلم جميع أطرافها أنها لن تستمر، ورغم ذلك كانوا يتعلقون بكل محاولات البقاء، يتعلقون بفعل لا ينهي ما تحويه قلوبهم من صدق، يحاولون خطف كلمة للذكرى، ابتسامة تسكن العين، أو حتى دمعة وفاء.

يتعلقون بكل لحظة قرب، بكل موقف صغير ليزيدوه بالتفاصيل كي يزداد الوقت بالكلام، الذين أيقنوا حتمية النهاية رأوا كل شيء حينها بشكل مختلف، وكأنه للمرة الأولى، كان الحزن يظهر في أعينهم مع كل كلمة سلام، وكأنه آخر سلام، يبتسمون لثواني، ويكملون التفكير في الحقائق التي لم تهرب مع كل نبضة للقلب.

نخاف مع كل قرب للنهاية، نجمع كل ما استطعنا من ذكريات، نُكمل للغد وتُكمل داخل قلوبنا الأيام، بصعوبتها، ومتاعبها، وتعَبنا في رحلة النسيان، فتحاوطنا الذكريات وبقدر ما بها من تعب تكون هي في وقت ما كل ما تبقى لنا، كل ما أخذناه معنا عند الالتفاتة الأخيرة بطريق كان هو الطريق الأقصر لقلوبنا.

من ذاق البُعد يدرك قيمة كل ثواني القرب، من تعلم بمعطيات الألم يعي حكمة المواقف والأيام، من رحل مضطراً يدرك قيمة من تمسكوا بالبقاء، من عاش الالتفاتة الأخيرة، ونظرة الوداع بلا موعد رجوع، من تحمل تقاسيم الزمن في وجوههم حكايات ومعارك العمر، الذين انتصروا بعد انكسار، الذين يحاولون رغم الأسى، يقاومون رغم الألم، يعلمون أن الحياة كفاحٍ متتالي مع الأيام والأحلام والنفس، الذين أدركوا الحقيقة مبكراً؛ حقيقة الدائرة المغلقة بلا هروب، الذين أدركوا الحقيقة بعد أن مروا بكل مراحلها بالانتصار والانكسار والانهازم والألم، الذين جاهدوا للبقاء بقليل من الأمل، يعلمون ما في الحياة وما في القلوب من تفاصيل.

كم مرة علمنا أننا سنفقد من نحب في نهاية المشوار! ورغم ذلك كنا نكمل بشغف وحماس وأمل نجدده عند كل مطب ومنعطف وسقطة وصدمة، كنا نجدد الأمل وقلوبنا يغالبها اليأس، نجدد اليقين وأرواحنا يتملكها الشك، كم مرة كنا نهوّن على بعضنا البعض وفي دمائنا تجري الأحزان، كنا نحاول أن نبدو بأفعال تدفعهم لأن يكرهونا وقلوبنا تنبض لهم حباً ووفاءً، وكنا في محطة البُعد الأخيرة نقول إنها مرحلة ومضت وبداخلنا مسار متوقف مزدحم متكسد بحبهم لا يمضي.

وبعد الرحيل يبقى شيء ما، شيء نلمسه بأيدينا، أو بقلوبنا، أو حتى يظل ساكناً بعيوننا.

* * *

ما لا يُجدي فيه الأسف

آسف.. واحدة من أهم الكلمات التي يمكن لنا كبشر أن نحتاج إليها، عند الانكسار، والوداع، وأخطائنا غير المقصودة، نقولها لمن وصلنا معهم لنقطة الفراق مُجبرين، وأحياناً متعمدين، نعتذر بحرقه بشعور الذنب مرة، ومرة لجبر خاطر، ومرة فقط لأجل أن نتفادى لومهم وعتابهم.

لا أعتقد أن كلمة آسف ينبغي أن تقل صدقاً عن أي كلمة حب تخرج من بين نبض القلوب، الاعتذار لا يأتي بطلب، لا يأتي فقط لتفادي شيء ما، لا يأتي سوى برغبة في الاعتذار، برغبة الاستمرار الصادق، يحدث فقط لرغبتنا في حدوثه.

لمن انتظر ليلاً بدموع ظناً أنه لن يهون، لمن خُدد بوعده كان يراه بعين صادقة، لمن رأى الكون في نقطة بقاء شخص ما واكتشف متأخراً الفخ الذي وضع نفسه فيه دون قصد، لمن وضع مُجمل رهاناته في شخص ما فخسر رهانه وخسر معه كل شيء، لمن انتظر كلمة – فقط كلمة – للتجاوز، للتخطي، لمن اعتاد التسامح، وعند خطأ وحيد وجد نفسه وكأنه يحمل أخطاء كل الكون وما فيه، لمن تحمل سخافات الآخرين وتحامل على نفسه دون مقابل، لمن خدد نفسه بطيبة لم تكن دائماً في محلها، الذين يقدررون ويعلمون ويعون القيمة والمعنى.

ورغم ما في الأسف من قيمة إنسانية، لكنها لم تكن دائماً كلمة شافية، لم تستطع تلك الكلمة دائماً منحنا قدرة التخطي والمروء، قدرة العبور للغد، حين جاءت بعد موعدها، بعد أن ترسخ بنا الجرح وعظم وسكن ليمحو بنا قدرة المقاومة.

لم يكن الأسف ذا معنى لمن وعد دون وفاء، لمن رحل عند احتياج البقاء، لم يكن ذا معنى بعد قلوب تهدم نبضها بالثقة واليقين الخادع والوعد الزائف.

وفي بعض المواقف كُنّا نتخطى، ولم ننس، كنا نتجاوز، وفي هذا فرق عظيم.

* * *

أن نستهلك أرواحنا

وكلما نسينا تُذكرنا كلمة في وسط جملة عشوائية، طريق قد لا يعني لأي أحد شيئًا، أغنية باهتة منذ زمن طويلة، عيون طفل، تجاعيد عجوز، سكوت بين أحاديث طويلة، وحدة بعد ازدحام البشر، كلما نسينا تذكرنا تفاصيل دقيقة، وما كان هذا بأيدينا، ورغم ذلك سنتنصر ذات مرة، وما بعد هذا سيكون أقل صعوبة، لن ننسى تمامًا، لكننا سنتخطى تدريجيًا حتى تتكوّن بقلوبنا مناعة أكثر تجاه الأمل، يبعد المشهد شيئًا فشيئًا عن قلوبنا.

الذين مروا بقلوبنا، كنا بمنحهم ثقة البقاء، كان خطأً وذنباً نكرره دون تعلم، بنفس اليقين ونفس الغباء، كنا نبني لهم في قلوبنا بيوتًا حصينة، وبكل براعة يهدمون جدرانها دون أية فرصة لأن تقوم ثانية، مساكين نحن وهم، أهدنا مُتعب بالظلم، والآخر ييقين النجاة الخادع.

ستتغير أمور كثيرة لو استطعنا أن ننظر للأشياء، للأشخاص بمنطق غير الثبات، لو امتلكننا القدرة على اليقين أن كل شيء، وكل شخص هو مجرد مرحلة، فقط مرحلة، إننا جميعًا مرحلة، أمور كثيرة ستتغير لو أدركنا الخطوة الأولى في بُعد ما يرهق قلوبنا، في بُعد أسباب الحزن والأسى، ولكن ما هذا بالأمر اليسير.

تجارب عديدة كان أعظم أمنياتنا بها أن نخرج بأقل قدر ممكن من الخسارة؛ من الانكسار، والألم، كانت أمنياتنا أن نفارق بدون تعب الوداع، أن نمشي دون معافرة مع أنفسنا كي لا نقف بعد خطوتين بُعد، دون أن نلتفت وننظر بحزن سنوات، كانت أمنياتك فقط أن تخرج سليمًا وتنجو من ثقة بنيتها مع شخص ما دون أن ينهدم حطامها فوق رأسك، من حلم سقطت قبل خطوة من وصوله، كانت أمنياتك أن تخرج سليمًا، تنسى، تعبر من الأمل دون أن يعبر داخل روحك بالألم، كانت أمنياتك أن تخرج سليمًا بدون أن يكسرك من حولك، كان أمنياتك أن تخرج سليمًا، ولم تخرج، والخبطة أوقات ما كانت تجعلنا أقوى، والانكسار كان

وقتًا ما مفيدًا، أوقات كان من الضروري هذا كله كي نستيقظ من أوهام خادعة، كان مهمًا حتى إن لم تخرج سليمًا.

نستهلك في روحنا ببراعة، براعة مُتقنة بأشد أذى، ندخل في حكايات نعلم، متأكدين أنها ليست لنا، نمشي، نجري في طرق تبعدنا عن نفسنا مع كل خطوة، تتعلم؟ الدرس أنك تقع فتعرف مكان السلمة المكسورة، لا أن تتعثّر فيها كل يوم، لا أن تتعثّر وتسقط كل يوم مع أشخاص لا يفرق معهم سقوطك، لا يفرق معهم الجُهد الذي تبذله حتى يمكنك الوقوف مرة أخرى، وتتعجب من أذى الآخرين لك، في حين أنك تؤذي نفسك أكثر، وتستهلك في روحك ببراعة عند كل اختيار خاطئ استمررت فيه، عند كل تكرار لأخطاء الأمس، عند كل تعلم تغاضيت عنه، ووهم بئس تعاملت معه بمفردات الأمل.

أنت لست مضطرًا لأشياء عديدة في حياتك، لست مُجبّرًا على أن تتحامل على نفسك وتتحمل ما يؤذيها مرارًا وتكرارًا دون أي أمل في أن يتبدل شيء، أو تجد في قلبك أسبابًا تشفع، لست مضطرًا لدفع نفسك لما لا تريد، أن تتغافل عن كل المتاعب التي تحملها وتزيد عليها فوق التعب ألف تعب، لست مضطرًا لأن تتمسك بمن يريد الرحيل، من يرى مُجمل أفعالك صفرًا، من لا يقدر حُزنك، ولا يبالي بمتاعبك، أنت لست مُجبّرًا على هذا كله، لست مُجبّرًا على أذى نفسك.

* * *

شكل النهايات

النهايات، إحدى الكلمات المؤذية بألم البُعد والوداع، نتفادي، نتلاشى، نهرب، وتلاحقنا بأعظم يقينيات البعد، كُنّا، وكان بيننا، حكايات وألف وعد، وألف قسم على تلاشي البعد، بعدنا، نسينا، تناسينا، توهمنا، تظاهرنا بأن كل شيء عادي، أن الفراق لم يكن مؤلماً، أن النسيان أسهل من ضغطة زر، وأنا لم نحتج لأي يدٍ ترافقنا الطريق، أقوياء بما يكفي، كُنّا، وكان بيننا، وكان في قلوبنا ألف حقيقة نحاول أن نخفيها، نُكابر، نحاول، وفي بعض المحاولات ألم إضافي، نُكابر ونقسم أننا لا نحتاج سوى أنفسنا، وفي قلوبنا يتعاضم الاحتياج، والألم.

تصطم قلوبنا بالحقيقة والألم، نبتعد وبعد خطوتين نلتفت طمعاً في نظرة، يؤلمنا أي خدش بسيط كأنه جرح عميق، تؤذينا المسافات والأحلام التي بنيناها معاً، نتعثر رغم وضوح ثباتنا، وقلوبنا تتحمل كل هذا.

في ختام الحكايات تتضح أشكال البشر، تتضح حقيقة عشرة العُمر، والخطوات الماضية، نكتشف معنى الرأفة والرحمة، وحقيقة المُحبين، وكلما كان التخلي يسيراً تعاضم في قلوبنا الندم على ما فات، تسابقت بعقولنا الأسئلة، عن أخطاء الاختيار، ورهانات التمسك، وليس الأمر بهين، تفرق جداً أشكال النهايات بمن أغلق الأبواب في وجوهنا فجأة ومن تمسك بأي نور يخرج من ثقب صغير للبقاء، بمن اختار في منتصف الرحلة دون سبب واضح أن يسلك اتجاهًا آخر، ومن سقط مرغماً بنظرة لا تفارق أعيننا.

النهاية هي النهاية، لكن يقينيات الصدق تبقى إرثاً نحمله في قلوبنا، على الأقل أمام أنفسنا فلا نتحمل ألماً زائداً بالاندفاع والتمسك الخاطيء، والأوقات الضائعة.

تعلّمنا؟ تعلمنا، ولكن مهما كان سهلاً الحديث، تبقى بنا أشياء مُتعبة، مُزعجة، أشياء لا يمكننا بسهولة أن نستأصلها من ذاكراتنا.

ختام الحكايات يُبقي الحكايات في قلوبنا ببعض من الارتياح أو كره كامل لكل الحكاية وتبعاتها، إن كانت النهاية حتمية فعلى الأقل يكفي أن تنتهي بصورة صادقة، ألا نستمر في أي حكاية مُرغمين فنصل بأنفسنا وبغيرنا إلى محطات لا تُمحي من القلب، يكفي أن نخطو ولو خطوة واحدة ولكن فقط صادقة، أو نرحل من البداية صادقين، فالصدق يبقى ويُبقي الآخرين في القلوب مهما مضى الزمن.

شكل النهاية كان في أوقات عديدة أهم من الحكاية نفسها، شكل النهايات يفرق، يُظهر الحقائق، والأشخاص، دون أي ادعاءات أو قناعات خادعة.

* * *

المحبة لا تقبل المساومات

من يحب هو في حقيقة الأمر يحب بلا سبب مُقنع، سبب غير مبني على افتراضات لمقابل ملموس، يخطو الخطوة دون حساب لتبعاتها، يستكمل الرحلة بمعاناتها وراحتها، يرتضي وجود شخص ما في قلبه دون سؤال، تملؤه قناعات الكون ويرى مُبهجته في نظرة عين.

المُحب من يدرك نقطة ضعفك فلا يستغلها، يدرك مآسيك فلا يتعمد تكرارها لك، يدرك حاجة الاهتمام، والعطف، والاحتواء، يدرك كل عيوبك وسقطاتك، ورغم هذا لم يغفل يوماً عن أنه يحبك.

الحب لا يقبل المساومات، فلا نكون مضطرين أن نخطو خطوة إضافية مع شخص يساومنا على المحبة والبقاء، مع شخص يتعامل مع حبنا له على أنه نقطة ضعف، لا نمشي خطوة إضافية لأننا حينها سنكون في الاتجاه الخاطئ.

الحب الصادق يزيدنا قوة، يجعلنا نُكمل الطريق بمطباته ومتاعبه بتحمل ورضا، لا نفعل شيئاً لأنهم يساومونا على البُعد، نفعله فقط بثقة وجودهم معنا، لا يمكن أن تكون محبتنا غير قوة صدق متبادل تجعلنا نتحمل بمعطيات وجودهم الذي يجعلنا أقوى، لا أن يكسرنا، يجعلنا نعافر ونتمسك لآخر نفس، فقط لأننا نحب، وفي هذا ألف معنى وقيمة.

لا سبيل آمنًا للهروب من أنفسنا

منذ متى وأنت تقاتل نفسك بأسلحة الإجبار ولا تستسلم؟ إجبار على الطرق المعقدة بغير نهاية، على وجود الأشخاص المتعبين بغير أسباب تشفع، منذ متى وأنت تقاتل للصمود أمام نفسك في الوحدة، فلا تستعيد الماضي بمتاعبه، ولا تعيد الأسئلة الراسخة في قلبك بلا أمل في الإجابة؟ منذ زمن وأنت تعيد الاعتذار لنفسك وتقسم أنها مرة أخيرة، أخيرة في تذكر ما فات؟ منذ متى وأنت لا تنسى، وغالبًا لا تحاول، تخاف المواجهة، دون أن تدرك أنه لا سبيل غيرها، تخاف البوح، وقلبك يتعبه الكتمان؟

تنتظر أشياء لم تصل، ولم تفقد شغف الانتظار، تردد كل يوم أحاديث عن الملل ومتاعب الصبر، وقلبك يتشبث بخيط من الأمل، خيط تراه أحيانًا متينة للعبور والنجاة، تتصفح رسائل كل يوم بملل وأمل، بداخلك صراعات ومعارك، تخطو خطوة للبعد وخطوتين للقرب، تقف في المسافات المتعبة لا تهرب ولا تعود، وتقطع كل يوم ألف وعد كاذب.

خوفك من أن تكون وحيدًا دفعك للقرب فاقتربت لأشخاص أخطأت في قريهم، خوفك من البعد دفعك للبعد عن نفسك وبعدها هم كذلك، كنت تزيد كل يوم خطوة قرب لأشخاص يبعدون خطوتين، يعاملونك كحدث عابر وتعاملهم كألوية، تزيد في البعد عن أشخاص يقتربون لك كي تقترب لآخرين يبعدون عنك، وأنت تعي هذا كله وفي قلبك زيف بائس يتجدد بالوهم وظلم النفس، وفي كل مساء تسخر من نفسك وتقطع وعدًا أخيرًا، وفي الصباح تعاود الكرة مرارًا وتكرارًا، تسأل نفسك لماذا يحدث هذا كله، وببراعة خادعة تتجاهل الإجابة.

تخاف أن تكون وحيدًا، وتخاف من ونس كاذب، تخاف من وحدتك، وتائه في وسط الزحام مع غيرك، معادلات صعبة تُحمّلها لقلبك، تخاف القرب والتعلق، وتخاف البعد والوحدة،

وتفعل أشياء عديدة فقط للهروب لنفسك، ونفس الأشياء لتتوه بها في الزحام مع غيرك، مسكين في وحدتك، وبئس في الونس.

ثم إنك تبالي ولا تعترف، تنهزم وتبدو دائماً في ثوب المنتصر، تنكسر فتبتسم كطفل يقول بعناد «ماوجعتنيش»، وبداخلك يعتصر الألم، ثم إنك تتظاهر بما ليس في قلبك، وتحاول أن تحافظ على لمعة عيونك صافية، أن تخفي خليط ما بها من حزن، فلا تعترف ولا تنكسر ولا تنهزم وتردد دائماً «أنا كويس» وأنت في حقيقة الأمر غير هذا كله.

وكلما وقفت عند عتبات روحك أدركت كم ما تخفيه، كلما أتيت لقول شيء قلت آخر، بطريقة أخرى: تهرب من نفسك، وتقول غير ما بك، وتتظاهر بعكس شعورك، بطريقة أدق: يُرهقك البوح والكتمان.

وأنت لا سبيل لك سوى المواجهة، تواجه كل تلك الأشياء التي تحاول جاهداً أن تهرب منها، تواجه كل تلك الأسئلة والإجابات التي تمتلئ يقيئاً بها وتنكر، لا سبيل سوى المواجهة؛ لأنه ولسوء حظوظنا نحن لا نجيد الهروب، لسوء حظنا أنه لا سبيل آمناً للهروب من أنفسنا، لا سبيل مُطلقاً.

تحتاج فقط لأن تكون صادقاً مع نفسك، دون أن تقسم إجاباتك بكلمة «لكن» لثجملها وتخرج من المواجهة بأقل قدر من ألم الحقيقة، تحتاج أن تواجه لحظة وحدتك، تواجه النتيجة، أن تكتشف نفسك بوضوح، بكل ما فيها من ظلم وعدل، وصدق وخداع، تحتاج أن تكون صادقاً مع نفسك كي تهون عليها متاعب عديدة تحملها بتعب وادعاء.

اعترافات

أعترف أنني تمسكت بأشخاص باعوا عند أول نقطة تخلّ، وأعترف أنني ندمت وعاودت الكرة مرارًا وتكرارًا بأسى عميق، ويأس متأصل، لكنني بكل ألم تعلمت.

أعترف أنني قاومت السقوط مرات ومرات لكنني سقطت وما بقي بجواري هؤلاء الذين ظننتهم باقين، وبهذا أدركت الكثير.

أعترف أنني خسرت الكثيرين حين كانت لديّ فرص أخيرة للتمسك، فخدعتني طمأنينة العودة والأيام الآتية، وما عدت وما عادوا، ما بقينا رغم ما بقي في قلوبنا من أمس حزين بالذكريات، وما للأيام من طمأنينة.

أعترف أن الثقة خادعة، والأمان يُحمّل قلوبنا عبء التوقع، وأنها ما كانت دائمًا أمورًا حميدة، أعترف أنني خُدت بهذا عديد المرات، والأيام، وسقطة واحدة كانت آلامها كفيّلة للفهم والإدراك.

أعترف أنني سقطت الكثير من السقطات المؤلمة، سقطات كانت تترك أثرًا عميقًا، كنت أبتسم وأدّعي التعافي، وفي نفسي يعتصر الألم، أقاوم بقوة، وبدخلي ضعف أحاول أن أخفيه، أعترف أنني انهزمت وصمدت وضعفت ومررت بتفاصيل الفشل؛ أدق تفاصيله، وكان بي شيء راسخ ثابت بلا معطيات واضحة، شيء كان يدفعني رغم عتمة الطريق، فكنت أظن أنني سأفعل أشياء أتمناها، أشياء أحبها، أنني سأتجاوز هذا كله، رغم التعب كنت أحب ما أتعب لأجله، وكنت أرى بهذا الحب السبيل، والدليل.

وفي كل المتاعب كنت أدرك أن التعب جزء من الرحلة، أن الانكسار جزء من الحكاية، أنه لا بد من المعافاة، أننا رغم التعب لا سبيل غير أن نُكمل، إن الضعف سيولد ضعفًا، والوقوف يعني ألف خطوة للخلف، أننا لا سبيل لنا غير أن نُكمل.. رغم مشقة الطريق.

أعترف بأن الله نجاني بكرم عظيم من مآزق وضعت نفسي بها، من أشخاص وطرق خاطئة، أعترف بأن الله كان قريب دائماً في أشد أوقات التيه والحيرة، وأني كنت أجد حكمته في الدلالات والإشارات والمسافات التي كانت تبعد رغم محاولاتي للتمسك والقرب، أعترف بأن الله نجاني بكرم عظيم مرات ومرات عديدة.

أعترف أنني أخذت قرارات متتالية للبعد، وفي كل مرة يجذبني شيء ما خفي إلى الوراء بقوة تضاعف خطواتي الأمامية، فأقف وأعود مُجبراً، فلا أمضي ولا أتوقف عن قرارات البعد المؤقت، لا أفعل ولا أتوقف عن التفكير في الفعل، وبمثل هذا تهزمتنا كثيراً قوانين الإنسانية أمام قرارات البعد والعودة، بالحيرة والاختيار، ولكل حدث معطيته في قلوبنا، وما تبني عليه خطواتنا.

في نهاية كل عام أقف حائراً وعاجزاً عن تلخيص ٣٦٥ يوماً في عدد كلمات أعرف أنها لن تتجاوز ٦٥ كلمة، أقف عاجزاً عن وصف من رحلوا مع رحيل العام أو بقوا، وصف نفسي وما فيها من مساوي عديدة، ومحاولات الخطوات الأمامية التي لم تكتمل دائماً، فأكتب وأمسح وفي كل مرة أفعل ذلك أتأكد أنني كنت صادقاً فيما كتبت، أنني كغيري نخشى الصدق في أوقات عديدة، ونخشى البوح، ونخشى خيانة الكلمات تماماً كما نخشى خيانة الأشخاص، أنا ومن مثلي ممن يتذكرون تفاصيل كل المواقف يكونوا في صراع دائم مع الزمن في محاولات التخطي والنسيان، أو بشكل أدق محاولات مع أنفسهم، فينتصرون وينهزمون، يتخطون ويقفون عند حاجز إجباري، وهذا منطق الحياة.

أقترب من حافة الخوف لأختبر شجاعتي، أعتصر في الألم القاسي لأختبر صبري، أشياء كثيرة اخترتها بإرادتي كانت تتعبني، أجري.. أجري بكل قوتي ولا أعلم إلى أين أو من هذا الذي يطاردني، أحنُّ إلى الماضي الذي يؤذيني، أفكر في مستقبل لا أعلمه، وفي قلبي تتسع الأسئلة، تدور كل ليلة في فلك عقلي، أكتشف تدريجياً أنني عدوي الوحيد، أنني عدو نفسي ومصدر إيذائه الأول، أنني أرهقت نفسي بما يكفي، وكل ليلة أقول لنفسي: مر زمن ولم نلتق، وفي الصباح أعاود الكرة بنفس الغباء والألم.

تعجبني أشياء لا تعجبك، أحب أشياء لا تحبها، تُرهقني أشياء تعتبرها مصدر راحتك، تُسعدني أمور تعتبرها تفاهات، وأنا لا أرى الأشياء كما تراها، ولا أحسبها كما تحسبها، ولم أكن دائماً كما تعتقد، وفي قلبي أشياء لا تعيها أحكامك المُجردة من معرفة أمور كثيرة، قد تراني تافهاً جداً وأرى نفسي بهذا سعيد، تراني لا مبالياً وأرى نفسي بهذا أتفادى نقطة اللافائدة، قد تراني أجري بكل حماس وتتساءل لماذا لم أتعب؟ دون أن تعرف حجم ما أعانيه من تعب وتحمل، وتراني أسقط أمامك فتتعجب من عدم قدرتي على التحمل دون أن تدرك كم بذلت من جهد، أنا لست دائماً كما تعتقد.. كما ترى، أنا لست كتاباً تقرأه ببساطة أحكامك الخادعة.

أدرك جيداً عيوبي، أدرك مساوئي ومواطن ضعفي، أتذكر عدد المرات التي انكسرت فيها، وكل السقطات التي نهضت منها فاقداً لشيء من روحي، أتذكر كل الذين تخلوا، وكل الذين تمسكوا، أتذكر كل الحكايات التي ظننتها لن تنتهي، وانتهت، وكل الحكايات التي هربت منها قبل أن تبدأ، كل الذين تقبلوا عيوبي وكل الذين سلطوا تركيزهم عليها، أتذكر ليالي روحي المظلمة، ونبضات قلبي البائسة، أتذكر كل الأمور السيئة التي مرت، كل الذين بعدوا رغم موثيق الوفاء، والذين تمسكوا.

تتكرر في عقلي الأسئلة ومراوغات الإجابات، تمر في قلبي التفاصيل بأكملها، أنا في الحقيقة لا أتخطى بسهولة، لا أنسى، لكنني أجيد التظاهر بالنسيان.

* * *

الفقدان

في لحظة ما وبلا استعداد يكسرنا الفقدان، يأسرنا في عمق مآسيه، ليست المشكلة وحدها أننا تفاجأنا بتلك اللحظة، ليست المشكلة في اتصال ما جاء ليهز ثباتنا، أو في رسالة انتصرت على ما كان بنا من صبر، ليست وحدها تلك اللحظة هي المشكلة، المشكلة الأكبر فيما يلي تلك اللحظة من تتابع مؤذٍ، تتابع يفرش أرض قلوبنا بالتجمل والتحمل والتخطي والتوقف، وصبر نجاهد لأجله، هو الصبر، وحده الصبر هو الأمل.

من وقف حائرًا، عاجزًا، تنقله الأيام الماضية، وتُعاد حياته في عين يملؤها الحزن الأقسى والأصعب بدموع الفقدان، دموع العجز، دموع المسافات، وكم في المسافات من تعب وأذى.

من تمنى لو كانت مفاهيم الحياة أكثر يسرًا وصدقًا، لو كانت مفاهيم المحبة هي الأولى، لو كان وحده الحب الصادق يكفي، لو اتسم البشر بقليل من الرحمة أمام محبتهم.

هؤلاء الذين تخلوا، الذين أجبرتهم أحكام الحياة الخادعة على التخلي، الذين فقدوا قوتهم بتعب كان يزداد في قلوبهم يومًا بعد يوم، الذين رحلوا متظاهرين برغبة الرحيل والوداع، وكان في قلوبهم شيء يابى أن يقبل بالتظاهر.

إلينا وإلى مآسينا وما نواسي به روحًا متعبة بالأغنيات والكلمات المكتوبة على جدران بيوتنا العتيقة، ومقاعد أماكننا القديمة، وطرقاتنا الخالية، وأحلامنا البائسة، ومكالمات المساء والصباح، وانتظار اللقاء ومحاولات الهروب من الوداع، إلى المواقف التي تسكن شقوق القلب، والأحلام المنقضية، لكل المعارك التي هُزمت فيها، وكل الحكايات التي غيرتنا، فخرجنا منها غير ما كُنّا.

ونحن نعوّل على الصبر والأيام وحكاياتها وسرعة دورانها، على جُمل صبر بأن لا حزن
سيأتي مماثلاً لما كان، ولا فراق سيحدث كالذي حدث، نُكمل دروبنا وحكاياتنا بالأمل،
ومحاولات النجاة من ذكريات الأمس.

* * *

أن تجد روحًا ترافقك في الغياب والحضور

وإن ضاعت من قلبك كل عناوين البشر، هناك شخص لن يُفقد في قلبك عنوانه، وإن سئم الجميع من متاعبك هناك شخص سيبقى وفيًا رغم تكرار الأحداث، وقد تغير الطقوس التي تعودت عليها ببساطة وسعادة لأجل أحدهم، وتُحب أشياء جديدة حُبًا في شخص ما، وتكتشف عظمة كلمة كانت تمر على مسامعك كل يوم دون أدنى مبالاة منك، وترى الشوارع التي طالما مررت منها كأنها المرة الأولى، وتكتشف في نفسك أشياء لم تكن تعلمها، وتنغمس في التفاصيل البسيطة بلا ملل، وتتبدل أشياء كنت تُطلق عليها بكل ثقة «تفاهات» وتدونها في قلبك بكل حُب لتكون من المُبهجات، وتدرك أنه يُمكن لشخص واحد أن يفعل هذا كله.. وأكثر من هذا.

أن نختصر مُجمل البشر في شخص وحيد، فنرى فيه معظم أسباب التمسك والبقاء، نراه عند أول أعتاب الاحتياج والسقوط، نختصر مُجمل البشر في شخص بيقين الثقة، فلا يخذلنا، ولا تهزمننا معه خيانات التوقع.

تجد روحًا ترافقك في الغياب والحضور، عينيًا تسكن نظراتك في البُعد والوجود، قلبًا يقاسمك النبض تعبًا وفرحًا ويأسًا وأملًا، أن تسافر في عرض الحياة وطولها مطمئنًا؛ مطمئنًا بكل ذرة في نفسك أنك لن تميل إلى غيره، تنتزع من قلبك أسباب الفراق، وضعف التخلي، فلا تهزمنكما المسافات، والسنوات، ولا تفارقكما دهشة طفل محب للأشياء بتملك دون مناصفة، أن يسكنكما المستحيل قبل الممكن، أن تُسلم غيرك كل أسباب آلامك، ونقاط ضعفك ويأسك دون خوف، باطمئنان كامل، أن تكون كل المعادلات، وكل الحسابات، وكل النهايات تؤدي إلى اللقاء والبقاء والوفاء.

لا يهم أن تبقى معي طوال الوقت، المهم أن أجدك سنَدًا حين تميل روحي، أن أجد فيك النجاة حين يصطدم قلبي بالتعب والمشقة، لا يهم أن تعدني بكل شيء، المهم أن أجد في

عينيك الصدق، أن تكون كما أنت دون تجمل أو ادعاء.

لا يهم كم بقيت معي، الأهم كم مرة احتجت لك فوجدتك، كم مرة كنت يداً تمنع سقوطي، أو قلباً يمنع همّاً أن يهزمني، كم مرة كنت بجواري تمنع يأساً يداهمني، لا يهم كم عرفتك، ويهم جداً ما أعرفه عنك في قلبي.

أن تواجه معي حزناً قاسياً قبل أن تتوقع فرحاً مريحاً، تتحمل عبء القتال مع الحياة وتقلباتها، تعي أن مطبات الطريق عديدة فتزداد ثباتاً، أن يكون في قلبك المستقر الأخير لكل حلم تائه، فتنقضي الحياة ويبقى في كل تجعيده في وجوهنا دلالات الأحلام العتيقة، وفي الروح دلالات الصدق والثبات، أن تتحمل وأتحمل، وتكون قلوبنا السبيل والدليل، تكون وأكون أملاً باقياً، فلا تغيرنا تقلبات الأيام وماسيها.. أن نقف معاً، أو نصل للنهاية سوياً.

أن تكون رفيقي؛ فيكون قلبك بوصلة الطريق، أن أقاوم بدفء تمسك يدك مرارة الألم والسقوط، وبعينيك عتمة الطريق والتوهان، أن ترى عيني في عينيك الصدق دون أن أسمع، أن يثق قلبي بما يجعلني أحتمل مساوئ الأيام، فلا أطلب منك يوماً البقاء وأنت تعلم حاجتي لوجودك، ألا أخاف من أن تظهر لحظة ضعفي أمامك، ألا أخاف أبداً، قد أقابلك صدفة، أحبك صدفة، أشعر بارتياحي لك صدفة؛ نتقابل في طريق صدفة؛ ويكون طريقنا واحداً مهما اختلفت خطوات العابرين، فلا نخطئ الطريق، لا نخطئ الوفاء، لا نخطئ صدق عيوننا، لا نخطئ الأمل والبقاء.

* * *

بقايا الحكايات

الناس هم الناس، الأيام أرقام تتغير، والقلوب نبض يُغير، ومن يقسم برب الكون على البقاء اليوم قد تجده غداً في أول صفوف الراحلين، وأنت لم تتغير؟ تغيرت كثيراً، تغيرت بكل السقطات والانكسارات والانهازات التي كنت مُجبِراً عندها على التظاهر بأن كل شيء على ما يرام، تغيرت منذ أن وطئت روحك عند صراعات البشر، مُجبِراً على معارك لم تكن في الأساس طرفاً فيها، حكايات لم تكن لك، وتفاصيل لم تكن تعني لك شيئاً، تتغير بالدهشة عند كل صدمة ثقة، وأنت تُغادر أماكن المفضلة، وعاداتك التي كانت تُهون عليك المتاعب، تغيرت ولم يحدث هذا صدفة، بل حدث بتوالي المواقف في قلبك، تتغير وتنسى كمن سقط ونسي هويته الأولى.

يدخل أحدهم حياتك فيغيرها لك رأساً على عقب، يغيرك ثم يخرج، ويتركك تائهاً ما بين ارتباك الاستمرار، وصعوبة العودة، تغادر الحكايات ولا تغادر بقاياها.

بقايا كل رحلة تبقى لتذكرنا بكل الدروب التي سلكتها، والمحاولات التي قطعناها للوصول إلى محطات أخرى أكثر أماناً، تذكرنا الندبات بكل الصراعات التي عشناها، الدهشات التي كانت توقظنا، والظلمات التي أدركنا بها النور، نواجه أياماً جديدة ونحن مُحمّلين بِحطام الأيام الماضية، مُحمّلين بالدلائل والسبل، بالتجارب المُحملة بتفاصيل الأيام الطويلة، ولحسن الحظ أن الماضي لا يمر بسهولة من قلوبنا، فننتذره عند كل تجربة، وكل خطوة، وكل أمل خادع، ويأس مؤذٍ، يبقى ليذكرنا عند كل اتجاه خاطئ واندفاع مؤذٍ.

* * *

طمأنينة البشر خادعة

ونحن بسهولة نعتقد أن هناك حكايات سطحية لا تؤذي، كأن تقطع لأحدهم وعدًا وتخلفه ببساطة، وأن تُعبر بسذاجة الكلمات عن حبك لأحدهم كاذبًا وتمضي غير مبالي، أن تُعبر فوق حزن الآخرين بسخرية من سخافة همومهم، أن تقتل شغفًا غير مكترثٍ بما تفعل، أن تبني في قلوب الآخرين مدناً عتيقة ثم تهدمها ببساطة وتدهس كل مشاعرهم، أن تفعل أشياء تبدو لك عادية، ولم تكن تمر في قلوب الآخرين بشكل عادي، وقد لا تمر أبدًا من قلوب الآخرين.

نعتقد بسهولة أننا يمكننا أن نقرب بكل شوق، ثم نُهمل وجودهم وكأنه لم يكن، نقرب وقتما شئنا، ونبعد حين نرغب في ذلك، نتمدد داخل فراغات قلوبنا غير مكترثين بأي شيء، فلا نهوى بصدق، ولا نبتعد كليًا، لا نقرب ولا نبتعد، لا نتركهم ولا نتمسك بهم، ثم نتوقع بعد هذا كله حتمية وجودهم معنا.

مسكين يا صديقي، ومُحمل بغبات اعتقادات البشر، مسكين وأنت لا تدرك أن نفوس البشر تحب وتكره بالصدق، تقترب وتبتعد بالأفعال، تتمسك وتترك باليأس الذي يصل لعمق القلوب بعد محاولات ومحاولات، مسكين يا صديقي ومُحمل بغبات البشر وأنت لا تدرك أن أحدهم قد يحارب الكون لأجلك حين يجد فيك الوفاء والرغبة في البقاء والتمسك، وقد لا يخطو معك خطوة وحيدة، فقط خطوة وحيدة حين يتملكه شعور تزرعه أنت في قلبه بكل ما أوتيت من لا مبالاة.

طمأنينة البشر خادعة، خادعة جدًا، فنمطن لوجود أحدهم طمأنينة مُطلقة، مهما فعلنا، ومهما حملنا قلوبهم بالأذى والتعب، دون أن نترك لهم ما يشفع، نتوالى في فعل كل شيء ممكن دون أن ندرك حجم أخطائنا، ثم ندرك ذلك متأخرين، ندرك عند محطات البُعد،

وفقدان الأمل، عند فقدان وجودنا في قلوبهم، ندرك حين تفشل كل محاولاتهم للقرب، بعدما كانوا يتفادون بكل ما أوتوا من صدق مسالك البُعد ومحطاته.

ثبات القلوب من مشقات الحياة، الثبات في الحب، في البُعد، في القرب، وحتى الكُره، قلوبنا تتحرك بشعور لا نحتاج له وصفًا، بمعنى الارتياح ودقة وصول كل كلمة لنا بشكل يسكن قلوبنا ببساطة، فربما نحب بعد كُره، أو نكره بعد حب، والثاني هو أشد أذى لأنه يحدث بعد جهد كبير مع النفس، يحدث بعد محاولات وفرص ومرات تقا، لسنا في مأمن من تقلب القلوب، ليس هناك ضمانات أكيدة، ليس هناك ما يحمينا غير الصدق، ليس هناك ما يحمينا غير صدق الوجود ورغبة التمسك والبقاء.

* * *

قيمة وجودك

ما فائدة أن تتركني حزينًا وتعود عندما أبتسم، أن تتركني في مواجهة الأسى والألم وتعود حينما أتجاوزهما بالتعب والمعاناة؟ ما فائدة وجودك عندما لا تصير جزءًا من مقومات قوتي، عندما لا تصير جزءًا من أملٍ يدفعني للطريق؟ ما فائدة وجودك وأنت في الحقيقة لا توجد؟!

ستكتشف قيمة وجودك في حياتهم عند أول اختيار، أول اختبار، عند الخصام، والبُعد، والوداع، عند فرص الاختيار التي اختاروا فيها غيرك، اختاروا بُعدك، ستكتشف أنك كنت تتمسك بيد لا تمسك بك، وأنت اندفعت خاطئًا، وكنت تبني أحلامًا ليست أحلامك، تكتشف، تتعلم، تحاول أن تفرق بين هؤلاء الذين رأوا في وجودك مرحلة، ومن رأوك كل الرحلة، بين من رآك نقطة وقوف وتمسك، ومن رآك محطة عبور، تكتشف أذى الوهم والاندفاع، تدرك كل شيء.

وليتنا نتعلم، فلا ندفع أنفسنا لبؤر عميقة في قلوبنا، وفجوات تملأ روحنا وتزيد في قلوبنا المتاعب والأسى، نحاول أن نُحسن الاختيار دون تعميم مُطلق للتجارب الخاطئة، فلا نرى الجميع كاذبين لتعرضنا لتجربة لم يكن فيها الآخرون صادقين، لا نرى الجميع بعين التخلي لأن أحدهم لم يتمسك بوجودنا، وأنا تخدعنا أحيانًا نتيجة التجارب، ونظلم بالتعميم، ونقف ونُكمل بمعطيات راسخة، أو جعلناها راسخة في قلوبنا، نقترّب ونبعد بيقينات الخوف والطمأنينة، وأنا نتعرض لتجارب بائسة وعند وداعها لا نودع بؤسها فيبقى في قلوبنا شيء منه، شيء من التعب والترقب بكل خطوة، يبقى في قلوبنا شيء من التعب، وكثير من الخوف.

مضى من وقتك الكثير مع الأشخاص الخطأ وكنت ترى أنهم الأصح بحياتك، كنت صادقًا في عطاءك، ومضى بعدها الكثير من وقتك دون أن تكون قادرًا على نفس الصدق مع

أشخاص ربما كانوا فعلاً هم الأصدق، عاقبت نفسك وعاقبتهم دون أن تعي ذلك، اختصرت الكون في تجربة فاشلة دون أن تدرك أنه ليس بالضرورة أن يظلمك الجميع، وأن المواقف ليست جميعها كتلك التي عشتها، وأن الحكايات ليست تطابقاً مطلقاً، وأن الأمس ليس اليوم.

التوازن، وحده التوازن هو الدليل، فلا نخاف كلياً ونهرب من كل خطوة صادقة في حياتنا، ولا نندفع كلياً فنعاود أخطاءنا وآلامنا وتجاربنا المزعجة، توازن البدايات الذي يجعل خطواتنا ثابتة في مفترق الرحلة، ونكون عندها قادرين على التكملة أو العودة، دون تعلق مُفرط يُصعب علينا كل خطوة رجوع.

وليس هناك ضمانات مُطلقة، نحن فقط نحاول أن نحافظ على أرواحنا بلا تعب، نحاول ببعض اليقينات، فلا تُزد نفسك تعباً بالندم على من هُنت عليه، بعدما اعتقدت أنه سيهون عليك الأيام، على من تمسكت به فتخلى، على من زرعت في قلبه حُباً فنبت طمأنينة للبعد، لا تبَق مع من وثق في بقائك فزاد ظُلماً، من وثق في حبك فزاد هجرًا، ولا تندم على كل ما ضاع؛ على كل اختياراتك الخاطئة، ربما لولاها ما عرفت الصواب، ربما أدركت بيقينات التجارب أنك أدق من يحمل هم متاعبك، أنك في وقت ما أبقى من يكون لنفسك.

عند نقطة ما ستتقبل أن يخونك توقعك في وقت ما، ألا يبقى الجميع معك للنهايات، ستتعلم ألا تتسرع في أحكام البقاء والوفاء، ستكون أكثر منطقية، أن تكتفي ببعض عن الكل، أن تكون محور الكون عند فرد وليس مجموعة، ستدرك تمامًا أن نظرات الناس تختلف، أن تقييمهم يتفاوت ولو كنت الأفضل على الأرض، ستتقبل أشياء عديدة، وتعي حقائق غائبة عمدًا عن عينيك.

* * *

تناقضات

أكره الانتظار، وأفضل المقابلات التي تحدث دون ترتيب مسبق، والأشياء التي تأتي دون توقع، يلهمني شكل الورق المبعثر عن تلك الأوراق المُرْتَبَة برتابة وشكل ممل أحيانًا، أقدس مبدأ الـ «يلا بينا» بأن نقرر الآن ونفعل، الحب قد يحدث بالتعود، لكنه أعظم حين يحدث دون جهد مبذول ولا تعويل على الزمن، وحين لا تغيره أيضًا تقلبات الأيام، صدق السعادة يأتي بعفوية وتلقائية لا تحتمل التفكير في تقطعات ضحكاتنا واحتباس أنفاسنا ودموع قد تنهمر من شدة الضحك، أكره انتظار وقت اللقاء حين يتأخر ويمر الوقت ببطء وممل، ووقت الوداع حين أعلمه ويمر الوقت بعقرب ساعات فقط بلا ثواني ولا دقائق، وبي كره مُضاعف لكل شيء مشابه، كل شيء كان مفروصًا عليّ وينبغي تقبله ولم أستطع، وما علمتني الأيام صبر الانتظار، وما علمتني الحياة التظاهر بحب ما ومن أكرهه.

تؤذيني تلك المسافات التي تقع ما بين الحضور والغياب، أن تقترب يومًا وتبعد آخر، أن تتمسك يومًا بكل ما في الوفاء من قوة، وتبتعد يومًا بضعف البائسين، لدي مشكلة في قبول الحضور الذابل والغياب غير المسبب، في الوفاء المُقسط، والكلمات التي تُلمح مرارًا وتكرارًا لسماعها، الذين أغلقوا دفاتر حكاياتهم الصادقة بالغباءات البشرية، أن نفترق ويمشي كل منا في اتجاه ونفترض أننا سنلتقي مرة أخرى دون أن نبذل أي شيء لهذا، أنا أو من بتقارب القلوب كما الخطوات، تقارب الأرواح في لحظة لقاء، أو من بأنني قد أراك صُدفة في طريق فأجعله طريقي، قد أراك صُدفة في مكان فيتحول لمكاني المُفضل، قد أراك فأرى كل الكون في عينيك.

حي أحب وأكره، ويحبني آخر، وآخر يكرهني، أحب شيئًا تكرهه، وأكره شيئًا تحبه، حي بما لا تعرفه في قلبي، بما أخشاه وأتمناه، وبما يسعدني ويحزنني، وهناك في الكون شخص ربما يشبهني تمامًا، لكن أرواحنا لا تشبه بعضها أبدًا، هناك حكايات تشبه حكايات عشتها، لكننا فيها بطلان مختلفان، أحياءً نتقاسم مساحات من الأرض، ومساحات من الحب،

ومساحات من الألم، ومساحات من الأمل، وبعض من الانكسار، والانتصار، نتقاسم أشياء لا يعلمها كلانا عن الآخر، ونتقاسم أيضًا أيامًا سيطرق فيها باب الوداع الحتمي أبواب قلوبنا يومًا منهم بالموت، أو الفراق، فنبتعد تمامًا، وننسى، ونُنسى، أحياءً ولا نحتاج سوى ألا نهون الحياة على بعضنا البعض، أو على الأقل لا نزيدها صعوبة.

قد يحمل كل منا تناقضات عديدة، ومع ذلك يجمعنا الارتياح الصادق، ولا يهم أن نتطابق في كل شيء، يهم فقط أن نتطابق في الصدق والوفاء.

* * *

يحكمنا العقل أم يؤذينا القلب؟

هل كان مهمًا عند الوداع من أخذ أول خطوات البُعد؟ من قرب خطوات الفراق واختلاف الطريق؟ هل سيستمر في ذاكرتنا محطات اللوم والعتاب أم محطات الذكريات؟ هل كان لزامًا علينا أن نقرب منذ البداية؟ أم أن التجربة كانت حتمية ولو ببعض الأمل؟

هل يحكمنا العقل، أم يؤذينا تحكم القلب؟

في الحقيقة أنه ليس هناك إجابة ثابتة لكل الحكايات والمواضيع، فكل حكاية هي قصة مُنفردة لا تقبل التعميم، فنحن لا نتشابه في حكايات حُبنا، ولا أسباب تحملنا، ومعطيات التخطي، نحن لا نتشابه فيما مضى من حياتنا، ومواقف وقفنا عندها، ومدى قابليتنا على الاستمرار، قد يحكمك العقل في موقف وتكون فيه على صواب، ويحكمني القلب في موقف يبدو لك مشابهًا وأكون أيضًا على الصواب.

أؤمن بأن كل شخص هو أدق من يرى الدائرة التي يقع فيها، وأدق من يمكنه الحكم بالتصرف في المواقف والحكايات، هو من يملك التفسيرات المختبئة في قلبه ولا تظهر لغيره، ونحن نطلب النصيحة من غيرنا، دون أن نتعامل بمعنى كامل «لو كنت مكاني» لأنني لو كنت مكانك في موقف فلست مكانك في ألف موقف آخر في نفس الحكاية.

يحكمنا القلب والعقل، يحكمنا الارتياح بخطواتنا، والتجارب التي نضجنا مرورًا بتفاصيلها البائسة، ما بنا من حكايات الانتصار التي لم نصل لها بسهولة، وأدق تفاصيل الانهزام التي لم نتخطها بتلك الصورة التي اعتقدوها، نحن نتعلم بكل هذا، نوازن بين كل ما مضى، وقد نصيب فنكمل، أو نخطئ فننتعلم وندرك تفاصيل الطريق أكثر.

* * *

حكمة الوقت المناسب

«الوقت المناسب».. مفهوم عصي على الفهم والتفسيرات المنطقية، نقف أمامه بمحاولات استيعاب، لماذا حدث هذا كله في ذلك الوقت تحديداً؟ لماذا ظهرت أمامي تلك الجملة في هذا الوقت؟ لماذا فارق من فارق ولمَ قابلت آخر؟ لمَ تقبلت شخصاً ورفضت آخر؟ لماذا تأخرت عمداً؟ ولماذا مشيت الآن؟ تساؤلات دائماً عجيبة ومدهشة، تدخل فيها حكم إلهية خفية، رحمة ورأفة وستر، أنت شخص محظوظ لو قادر على أن تدرك الأوقات المناسبة في حياتك، الأوقات المناسبة لأن تكمل أو تنسحب، لو قادر على أن تدرك الإشارات والعلامات ويقين الشعور الذي يأتي دون سبب منطقي.

ولعلنا ندرك معنى الوقت المناسب فلا نُؤخر الكلمة الذي تقال غالباً بعد أفعال مؤذية وندم يشترك فيه طرفان خسرا بطمأنينة الوقت، تأخرت كي تبدو ثقيلاً فثقلت أشياء عديدة في مشاعرك، تأخرت بمفهوم «هصالحهم بعدين» وكانت هناك أشياء أقرب من بعدين، أشياء لم تدع «البعدين» يأتي أبداً وبقي ضميرك دائماً أقرب لتأنيبك، تأخرت حتى تفهم معنى، كي تفهم أن هناك أشياء عديدة كانت فقط بدافع الخوف، كي تفهم أن الحب يغير حتى هدوءنا ويجعلنا أوقات ما مندفعين، تأخرت في فهم جملة «بخاف عليك م الهوا»، حين مضى كل شيء وقلت «ياااه» بتنهيدة النهايات، تأخرت كي تسامح ووقفت عند وقت مرض، وقت وداع أخير، في محنة وألم بجملة «قولوا له مايزعلش مني، خلوه يسامحني»، تأخرت في أن تعترف بمحبتك، في أن تسمع نبض قلبك الصادق، أن تقرر، أن تقترب، أن تفكر.. أن تبعد عن تلك الأشياء التي تؤذي بألم الضمير، بالندم.

وأنا نحتاج فرصة أخرى كي نثبت لمن أحبونا بصدق أننا كنا فعلاً نحبهم بكل ما بنا من حنان وعطف نخبئه طوال الوقت ويظهر بالخوف والقلق إن غابوا، فرصة ثانية كي نثبت لأنفسنا أننا حين خسرنا كان يمكن أن نكسب إن فقط صبرنا خطوة أخرى، نحتاج فرصة ثانية كي نُصلح ما فعلته الكلمات التي خرجت بغضب ولم نقصد معناها وخسرنا بها وجود

أشخاص قريبيين، فرصة ثانية نقسم فيها أننا لسنا سيئين وأنا آسفين على ما فات وأنا سنكون أفضل، فرصة نرجو فيها المولى أنها تكون ولن نكرر أخطاءنا.

فرصة في الوداع الذي لم نكن ندري أنه الأخير واختصرنا نظراتنا وكلماتنا الأصدق خبأناها داخلنا، فرصة نفتح فيها كل أبواب قلوبنا، فرصة نتخلص فيها من نظرتنا للعالم أنها باقية للأبد، نفهم بها أن وجودنا مع القريبيين من قلوبنا ربما لن يكون كافيًا، أن وجودنا في الحياة بأكملها لن يطول، أمنية لفرصة نقول بها «لو رجعت الأيام»، «لو رجعوا اللي بعدوا»، «لو» التي تخرج من قلوبنا بالأسى والألم، ولا يحدث ما نتمنى دائمًا، ولن تعود أيامنا الماضية، وليس أكيدًا أن تُعاد الحكايات التي مضت، وأمنيات الفرص الثانية قاسية ومؤلمة وتدفعنا بكل ما فيها من بؤس للحزن الخام، الحزن الذي ندأبه في قلوبنا ونغلق عليه بإحكام ونكمل حياتنا «عادي جدًا» ومبتسمين بالظاهر منا.

الأشخاص الذين قابلتهم من ترك منهم ومن تمسك، الحكايات اللي عشتها بالانهازمات والانتصارات، التفاصيل الدقيقة في الأيام ستؤكد لك يومًا بعد الآخر، موقفًا بعد الآخر، معنى حكمة الوقت المناسب، الشخص المناسب، تؤكد أن الأشياء اللي بذلت لأجلها كل طاقتك ولم تحدث ربما كان خيرًا لك أنها لم تحدث في ذلك الوقت، أن سقوطك الذي كنت تراه تأخرًا في الطريق ربما كان لحكمة أدركتها فيما بعد، أن الخطوات البسيطة اللي كنت تراها لا تفرق هي ما صنعت المشوار، وأن انهزاماتك كانت تُظهر داخلك، وانكساراتك كانت تؤكد أنك في كل مرة يمكنك أن تكمل، للوقت المناسب حكمة تكشف معاني كثيرة، نصل بها تدريجيًا لحقيقة الحياة وعدل السعي وقيمة التجارب.

ولعلنا ندرك هذا كله، ندرك حكمة الوقت المناسب، والشخص المناسب، والقرب المناسب، ندرك معنى الخسارة والفقدان، ندرك قيمة الأشياء التي فقدناها عمدًا، وضعف تمسك، والأشياء التي ودعنا ربما لحكمة ما، الأشياء والأشخاص أيضًا، ندرك أن المكابرة في وقت ما قد تكون أسوأ أخطائنا، وأسباب خسارتنا.

* * *

هل نحن أقوياء بما يكفي؟

سيمضي العمر بقلوبنا، سنكون حكماء بكل ما مضى في حياتنا، بيقين واقتناع سنردد جُملاً اعتيادية «يابني كل واحد عنده همومه»، نبتسم ابتسامات خجلة نسترجع بها ألف ماضٍ ونؤكد بانكسار أننا مررنا بكل ما يمرون به حالياً، تحاصرنا وحدثنا أحياناً ببؤس الحزن على من فقدناهم وكان أملنا أن يبقوا ويهونوا ما بقي من العمر، سنحكي أمام صور قديمة ما عجزنا عن أن نحكيه للعالم، ونختتم الحكاية بجمل صادقة «كنت شايل عني كثير»، نبكي بسهولة ونتمسك بأشياء بسيطة ونرجع لمراحلنا الأولى بقلب طفل، تصعب علينا أنفسنا، نتمنى الكثير مما فات، نتمنى أن يعود العُمَر بمن كانوا فيه، نندم على من تركناه، على كل من تخلينا عنه بطمأنينة كانت تزداد بخداعها في قلوبنا، نغسل بأحزاننا كل ما فات من ظلم قبل أن نودع الحياة.

ندم بعدما يمضي وقت الخطأ، نعرف قيمة الناس القريبة في حياتنا بعد بُعدهم، نشعر بالعمر حينما يقترب من نهايته، نقول «لو» و«يا ريت»، نتمنى لو قلت الكلام الذي خبأته خلف قسوتك بدافع خوفك ومحبتك حين ينتهون من دنياك، دون أن يتأكدوا من أن قسوتك كانت من المحبة، تنهي العمر بكلمة سامحني ودمعة تجف على وسادتك مع عين تُغمض للمرة الأخيرة، تترك منك أفعال ماضٍ وأفعالاً انتظرت فيها وقتاً مناسباً لم يأتٍ وكلاماً خبأته فظل مختبئاً للأبد، تترك منك أشياء كثيرة، أشياء من بينها حياتك.

هل نحن أقوياء بما يكفي للتخلي عن تمسكنا؟ من رجوا بقاءنا، وبنوا بصدق وعودنا حكايات وآمالاً؟

الحياة ضيقة، ضيقة جداً، مشاوير في دائرة مغلقة نتقابل فيها مرة في نفس الاتجاه، ومرة عكس الاتجاه، مشاوير لا تنتهي فيها ما يكسرنا، ومن يخسرنا، ما يقوينا، وما يهزمننا،

مشاوير وحكايات، وأناس، وأحلام، نترك حلمًا ونتمسك بغيره رغم أنه كان مُجمل أمنيات
غيرنا، وغيرنا يترك حلمًا كنا نتمناه، حلمًا أو شخصًا.

قناعاتنا، عواطفنا، أشياء خفية في قلوبنا تحركنا، وجود شخص واحد في حياتك من
الممكن أن يمنحك قوة تكفي لكامل العمر، ووجود آخر من الممكن أن يسلب كامل قوتك
وأحلامك، ومعظم المواضيع التي كُنّا نقول عنها بثقة نحاول التظاهر بها «مش مهمتم»
يمكن أن تكون أكبر اهتماماتنا لكننا نُجيد التكابر، الحياة ضيقة، وقلوبنا هي أكبر براح
نهرب لمساحة الارتياح به.

لم نكن دائمًا بما نُبديه من قوة خادعة ونحن نترك بسهولة الأشخاص الذين يهونون علينا
بعضًا من الحياة، ألم الندم أقسى من ظلمنا، ضحكاتنا المكسورة لن تخبئ ما نحاول أن
نخفيه، وأعيننا ستلخص كل العمر.

* * *

التقبل

التقبل هو البدايات الفعلية للوجود الصادق في كل العلاقات الإنسانية، تقبل مساوئنا كبشر، وانعدام قدرتنا في وقت ما على الحديث والتعبير، التقبل هو رضا البقاء دون أن يكون هدفنا أن نقول فقط في مواقف العتاب واللوم أننا نتحملهم، ألا نقسم الأفعال والأقوال، أن نرى الحكاية كلها بالإجمال دفعة واحدة، فنحب دفعة واحدة، ونتقبل دفعة واحدة، ونستمر بروح واحدة، ونبض نتقاسمه برضا ويقين ووفاء.

أن يتقبلك آخر كما أنت، يتقبل مزاجك المُتقلب، وحزنك القاسي، ويأسك المؤذي، أن تنهاوى فتجد من يسندك قبل السقوط، من يقف بجوارك حين يتخلى الجميع، أن يتحملك آخر بكل ما فيك، يُحبك رغم ما أنت عليه، يسندك للطريق دون دلائل كافية للوصول، أن يثق بك دون قسم أو وعد، يترك بك قلبه مطمئناً، يشاركك النبض بيقين الوفاء، فهذا هو الإيمان؛ هو أدق معاني الإيمان، هو شيء ما يتخطى مراحل الحب، أن يؤمن بك أحدهم فلا يخذلك حين يخذلك الجميع، يكون كل أسلحتك حين تنهزم في كل المعارك، مجمل قوتك حين يُضعفك الكل، هو الإيمان، هو كل شيء، وأسمى شيء، وأدق ما تحمله قلوب الصادقين.

أن تبوح لأحدهم بضعفك، بمخاوفك، ألا تتصنع، ألا تحاول أن تضع ما يزيد بريق وجودك، أن تدرك التقبل رغم مساوئ لن يخلو منها البشر، أن يحتل أحدهم تفكيرك عند أول خطوط الاحتياج، الهروب، التخلص من مساحات الهموم بداخلك، أن تشعر بأنك مطمئن، فقط مطمئن، مدرك أن يقينك لن يخون، دلائل تبدو بسيطة، تبدو عادية، لكنها في حقيقة الأمر دلائل عظيمة لهؤلاء الذين يسكنون باستقرار في أقصى الصدر.

لسنا بحاجة لأكثر من التقبل العادل، تقبلنا في الوقت الذي نضحك فيه والوقت الذي نعجز فيه عن أن نستمر في «حاجة مدارية جوانا»، تقبلنا كأشخاص عاديين بكتلة من المشاعر

ليست دائماً ثابتة على نمط وحيد، بدون تصنيف بموقف واحد، بدون حُكم بوقت حُزن إجباري، بدون حساب الوقت الذي لا يمكننا أن نتحدث فيه على أنه تقصير، والوقت الذي لم نكن قادرين على أن نسمع فيه أنه تجاهل، لسنا بحاجة لأكثر من التقبل العادل، واستيعاب دائم أننا في النهاية بشر نحزن ونفرح ونقف ونستمر، أننا في النهاية لا نملك سوى أن نقاوم كل المساويء.

ليست الحكاية في عدد من حولك، ولكن في كم شخص وفي، في كم قلب صادق، فيمن يتحملك، يتقبلك بكل ما بك.

* * *

السند

نحن ببساطة نُحولنا مثلاً كلمة، أو نظرة، أو شعور ما من النقيض إلى النقيض، ونحن نتخلى عن كل تظاهر خادع وادعاء زائف بقرب شخص ما، نتخلى عن كل محاولات الظهور بكل ما في العالم من قوة، وأننا لا نتأثر بالبُعد والقرب مع من لا يتعاملون مع حُبنا لهم على أنه نقطة ضعف يستغلونها ضدنا، مع من يرون أن الحب الصادق يزيدنا قوة، نُكمل الطريق بكل ما فيه من مطبات ومتاعب بالرضا، فيقوينا وجودهم ولا يكسرنا، ويجعلنا نتمسك لآخر نفس.

لم تُورقنا الهزائم، ومتاعب السقوط، بقدر ما أتعبتنا الصدمات، صدمات التخلي، والبقاء وحيدين عند نقطة الهزيمة، أن تلتفت فلا تجد أحداً، أن يهرب الجميع حتى هذا الذي كنت تعتقده مجموع السند، ألا تجد كتفاً تستند عليه في وقت السقوط، أمر سيء جداً، لكنه يُعلمك، يُقلل توقعاتك، وصدماك.

جميعنا بحاجة إلى العطف، للرفقة، للصدق، للطمأنينة، للأمان، لمن نرى به في وقت الضيق براح الكون، بمن يهون بوجوده مصاعب الحياة، لمن نتحدث له بدون تفكير، بدون تبرير، لمن يسند عند نقطة ما أروحنا ومتاعبها، ونرى بعينيه الطريق حين تظلم الحياة في أعيننا، لمن يبقى لآخر المشوار لو خلت دنيانا، دون أن نكون بحاجة لتكرار سؤالنا: «هتفضل؟».

«كل حاجة ما بقلهاش طعم».. من أكثر جُمَل الانكسار، الجملة التي تخرج برعشة حنجرة تقاوم الألم، وقلب يرجف من الحزن، الجملة التي نقولها عادة بعد خسارة عظيمة، خسارة تكسر شيئاً ما في روحنا وتظلم بها أشياء كانت تنير الدنيا في عينينا، تمر الأيام بعدها والبعض يبقى جوارنا كتفاً لكتف ويد تمسك بكل قوة في أيدينا.

«السند» من نرى بهم الحماية كلما اقتربنا أكثر لمنعطفات نُؤذي بها أنفسنا، يسندوننا حين نميل للسقوط، ويحاولون جاهدين جداً لأنهم يعيدون ضوء الحياة في عيوننا بعد خسارة

ما، يسعون جاهدين جدًا أن يبنوا كل جدار سقط من قلوبنا، «السند» هم من بقوا حين تلفتنا حولنا ولم نجد غيرهم، فاطمأننا رغم كل الأشياء المخيفة بقلوبنا، واقتربنا للراحة أكثر رغم كل ما يسكننا من متاعب، نعود بهم تدريجيًا لأنفسنا، نستعيد الأشياء التي سرقت من أرواحنا، نحافظ بوجودهم على كل شيء ممكن أن يخطفه الحزن منا.

أشخاص نتذكرهم حين تغلق الطرق في وجوهنا، عند لحظة الانكسار وخيبة الأمل، في تجاربنا البائسة، أشخاص لم تُغلق أبواب حبهم يومًا في وجوهنا، ولم يبتعدوا في وقت احتياج، يساعدوننا قبل اللوم، يجاوبوننا بلهفة، ويسمعوننا بحب، وتملاً كلماتهم لك مفردات السعادة، وهم نعمة عظيمة في حياتنا.

ونحن نحتاج لمن يتقاسم معنا تفاصيل الألم لا تفاصيل الفرح، لمن يمد لنا يده وقت الانكسار لا لمن يصفق لنا وقت الانتصار، لمن يساعدنا لا يزايد علينا، لمن يستوعب حزنك من نظراتك، وسكوتك، واختلاف نبرة صوتك، لمن يشاركك الرحلة، يكون وتكون السند، تنظر له في نهاية العمر بنظرة رضا، نظرة يقين واطمئنان، لا تندم لو افترضت إعادة العمر مرة أخرى.

تمشي وأنت تعلم أن ظهرك محمي من تقلبات الأشخاص والأيام، أن ظهرك محمي فلا تكون مضطرًا للالتفات كل لحظة كي تطمئن، وأنت تعلم أنه لو طال الطريق، لو تخلى الجميع هناك دائمًا شخص باقي، لو وقعت هناك أيدٍ دائمًا ستمتد بحماس كي تنهض مرة أخرى، لو ضعفت هناك أحدهم مُصر على أن تكون أقوى، أن هناك دائمًا شخصًا قادرًا أن يرى خطوتك بيقين الوصول، أن تعلم بيقين أن شخصًا واحدًا قد يعادل مجموع الكون بوجوده بجوارك.

لا يهم أن تكون بجواري وقدمي ثابتتان على الأرض، لا يهم أن تكون بجواري وأنا أضحك ملء الشمس، لا يهم أن تشد على يدي وأنا واثق من الوصول، المهم أن أجد كتفك سندًا حين أتمايل حزنًا، أن يتسع لي قلبك حين يضيق الكون في عيني، أن تبقى حين يشد بأسني، أن تتمسك حين يتخلى الجميع، ألا تخذلني حين تكون أمني الأوحده، والأخير.

* * *

ظلم النفس

معارك كثيرة دخلتها مُجبِرًا حتى وجدت نفسك في منتصف الدائرة، أناس كنت تحاول جاهدًا أن تتفادى خسارتهم، تقاوم دخولك في الدائرة وهم يدفعونك لها بكل ما أوتوا من أسباب للتعب، تحاول ويعاندون، تخسر ويخسرون، معارك وقفت أمامها بأسى وندم فيما بعد بالأسئلة المُحيرة، «ليه عملت في نفسي كذا؟»، «ليه كملت في نفس الاتجاه؟»، «ليه حاربت وقاومت علشان ناس كانوا في الأساس قدامي في المواجهة مش في ضهري للحماية؟»، الأسئلة التي تنقل ساحة المعركة لداخلك، وحرب النفس أسوأ حرب.

تجد نفسك مُجبِرًا أمام كل الاختيارات، وأن هذا الطريق الذي وصلت لمنتصفه لم يكن طريقك، وهذا الشخص الذي يرافقتك لم يختر أيّ منكما الآخر، أنك كنت تتفادى اختيار ما على أمل التعود، التأقلم، ولم يحدث هذا كله، تجد نفسك مُجبِرًا أمام التكملة والعودة للبدء من جديد، وتجد أنك أضعت معظم قوتك، أو كلها، في أشياء لم تُردها، وأنك دائمًا تكتشف أخطاءك متأخرًا.

معظم الوقت تبدو غير ما أنت عليه، وتتمسك بأشخاص لم يتمسكوا بك، وتبتعد عن أشخاص كانوا يرونك كل الكون، ترهق نفسك في علاقات ساذجة، وحكايات تأخذ من روحك دون مقابل، وتضع طاقتك في شيء لن يفيدك، وتتفاجأ بسرعة السنوات وتقرر ولا تفعل، أنت تعلم هذا كله وتتجاهله، تعلم أسباب راحتك وتستصعب خطواتك لها، تياس بسهولة ثم تندم، تتخلى بسهولة ثم تترجى العودة، أنت تعلم هذا كله وتتجاهله، تفضل اللامبالاة والمنطقة التي ليس بها تقدم أو رجوع.

نخدع أنفسنا وننظاها بأننا نُصدق، نحاول أن نقنع أنفسنا، نقول عكس ما بداخلنا على أمل، نجدد كل يوم الفرصة ونزيد بداخلنا المبررات، نفيق بتكرار المواقف وصعوبتها، نعترف متأخرًا أن وجودهم لم يكن فارقًا، أنهم لم يكونوا السند وقت السقوط، أن وجودهم كان

وجود عدد، نكتشف أن كثيرًا ممن كنا نراهم على مسافات بعيدة كانوا أقرب خطوة لنا وقت الاحتياج، أننا أوقات كثيرة اعتقدنا أن من أمام أعيننا هم الأقرب، أننا في الحقيقة لم نكن نرى من كانت أعينهم مركزة طوال الوقت فقط على ثبات أرواحنا.

أشد أنواع الظلم هو ظلمنا لأنفسنا، ظلمنا عند كل فعل لم يكن مناسبًا لنا ودفعنا أنفسنا بالإجبار لاختياره، عند كل تكرار فاشل للتأقلم كنا نزيد به الأذى بداخلنا، عند كل رغبة كانت تزيد شعورنا بالحياة وقتلناها عمدًا باليأس، عند كل طريق أرهقنا فيه أرواحنا ونحن نعلم أنه لم يكن طريقنا، ظلم النفس هو أقسى ظلم، وأقسى خسارة.

ستكون بخير حين تكف عن العناد في الطرق الخاطئة، حين تبتعد عن كل النقاشات التي تدري أن ننتجتها صفر، حين لا تتعلق بسهولة خاطئة، حين يمكنك أن تفرق بين الوقت الذي ينبغي أن تكون فيه خطواتك سريعة والوقت الذي يجب عنده أن تقف تمامًا، حين تواجه بدلاً من أن تهرب، حين يمكنك أن تحدد بوضوح مصادر إزعاجك، وتستأصل من حياتك كل الأشياء التي لم يكن لوجودها أهمية، تستأصل كل الأشياء التي تضغط على روحك بلا جدوى، ستكون بخير حين يمكنك أن تتخلص من كل الحواجز التي تعيق راحة بالك.

* * *

العوض

تلك النغزة التي تصيبنا عند الخسارة لتزيد بقلوبنا ألم الأيام ومآسيها، النغزة التي لا تستمر دائماً عندما ندرك بعد حين أن ليس كل خسارة تُحدث فراغاً يبقى بنا، وأنا نخسر أحدهم لمكسب آخر، عندما ندرك أن المساحة الأصدق بقلوبنا عادت لمن كان يجب أن تكون له من البداية، نشعر بتلك النغزة كصدمة كهربائية نصحو بها على ألم يعيد لقلوبنا النبض، أشياء عديدة ندركها متأخرين، ندركها بأسى، ويهون كل هذا بأننا أدركنا الحقيقة ولو بألم عميق.

«ربنا يقطع من هنا ويوصل من هنا»..

العوض حكمة إلهية، مسار عادل رغم صعوبة تصديقه، نخسر أشياء، أشخاصاً، ونكمل الطريق بصعوبة، بخطوة ثقيلة، باضطرابات انعدام الاختيارات، ونكتشف أن صعوبة الخطوة كانت تصلنا لمرحلة العوض، أن الأشياء التي لم نصلها رغم استماتة محاولتنا للحاق بها كانت محطة في رحلة تصلنا لمحطات أخرى أكثر أماناً، العوض يكشف لنا حقائق عديدة، يجعلنا مندهشين من الترتيب العجيب للمواقف، نشكر الظروف التي كانت في وقت ما مؤلمة، نشكر الفراق الذي كان في وقت ما مُتعباً، والرحيل بكل ما كان يحمله من صعوبة، كل واحد منا نال العوض ولو مرة، نجا ولو مرة، مرة ربما كانت فارقة في كل العمر.

ستدرك تماماً عند مرحلة ما أنه ليس هناك حظ مُطلق، وأن الحياة مجموعة من السقطات والانكسارات والهزائم والمتاعب، ومعهم انتصارات ومكاسب تحتاج صبراً وعناداً مع أنفسنا ومعها، ستدرك تماماً أن كل شيء يحدث في وقته تماماً، وأن خسائر ما كان أفضل أنها حدثت، وأنك ربما لو كان في يديك أن تختار ربما تختار سيناريو حياتك كما هو.

سيدهشك أن كثيراً من الأشياء التي ظننتها لن تمر مرت، أن الألم الذي رأيته لن يهون هان، أن السقطات التي اعتقدت أنك لن تنهض منها مرة أخرى استكملت الطريق بعدها، أن

اللحظة التي اعتقدتها لحظة نهاية كانت مجرد نقطة عبور لبداية أخرى، وفي الغد ربما تتعجب من حكمة أحداث الأمس.

قد لا يكون كل شيء على ما يرام، تجاربك البائسة ومن رحلوا وقت احتياج، ذاكرتك العنيدة وحرب النسيان، قد لا يكون كل شيء على ما يرام، آلام الأمس وأثرها الباقي، الفراغات التي تمتلئ والجروح التي لم تلتئم، قد لا يكون كل شيء على ما يرام بعناد قلبك، قد لا يكون كل شيء على ما يرام الآن، الآن الذي لا يستمر.

* * *

المفاتيح التي فقدتها

المفاتيح هي أكثر الأشياء التي لا أؤمن عليها، ولا أحفظ لها بقاءً مهما حاولت، وكم من باب كسرتة بفعل ذلك مع كل مفتاح أفقده، تدريجيًا مع الأيام أدركت أنني أضعت مفاتيح عديدة غير مفاتيح الشقة، استوعبت أنني أضعت مفاتيح كانت تصلني إلى نقطة الراحة بنفسني مع كل إجبار خاطئ لها، أضعت مفاتيح إلى الآخرين مع كل عناد كان إجمالي وجودنا فيه خسارة مؤكدة، وجدت أنني أضعت يومًا مفتاحًا وأضعت معه كل فرص الاستنساخ حين فقدت شيئًا من روعي أعرف أنه لن يعود، وحين استمررت في طريق كنت أعرف أنني سأعود منه بغير ما كنت عليه، وأن شيئًا ما سيتغير بعدما كنت أمامه دائم التمني ألا يتغير.

استوعبت أنني أضعت مفاتيح عديدة ظلت إلى الآن أبوابها مغلقة أمامي بإحكام تام، وأنني تعمدت ضياع مفاتيح ما كي أتخلص من نظراتي إلى أبواب أفضل لو بقيت خارجها، وأن خطأ ما كان يحدث في كل مرة كان يتوجب علي فيها أن أحفظ مفاتيح أبواب كان منها الممر الأكثر صدقًا لي، ولم أفعل.

الفقدان ضرورة حتمية يفرق بها التوقيت، متى؟ هذا هو السؤال الفارق لا شيء آخر، سيحدث أن نفارق صديقًا ما، حبيبًا، قلبًا كان يقاسمنا النبض، سيحدث أن تفارق قلوبنا بأكملها الحياة، أن تتوقف عن النبض، أن يتوقف مع توقفها أمنيات من كانوا يعلقون على وجودنا الأمل، الفقدان أمر حتمي لكننا نتجاهل، نحاول الهروب، فقط نحاول لا شيء آخر، نحاول رغم علمنا أن كل شيء سيتحول في النهاية لذكرى تتعبنا أو تمنحنا صبرًا رغم الألم، أن كل شيء سيتحول في النهاية لمجرد جملة تبدأ بـ «يومًا ما»، وأن السؤال سيتبدل من «متى؟» إلى «ماذا لو؟» ليحاصرنا بعذاب الضمير عن كل الفرص التي أضعتها بكبرياء البشر الخادع، عن كل الذين رحلوا أو أجبرناهم على الرحيل، سيتحول السؤال إلى «ماذا لو؟» ليفاجئ ضعفنا البشري ويهزمنا في جولة حياتية لا تحتاج إلى أي جهد للانتصار.

لو كانت لي أمنية أخيرة لتمنيت أن يسامحني كل من أسأت لهم بقصد أو بدون قصد، كل من ظنوا بي خيرًا ولم أكن، أو اعتقدوا هم ذلك، لتمنيت أن أمحو كل الصدمات التي حدثت في حياتي، أو الصدمات التي كنت سببًا فيها، أن أمحو كل هفوة وخطأ ارتكبته بحق شخص ما، أن تعود الفرصة لأخبر أبي كم كان وجوده مهمًا في حياتي بالدرجة التي لم أجد التعبير عنها، لتمنيت أن أعيد كل شيء هدمته دون قصد كما كان، لاعترفت بمقياس ألمي الشديد أمام كل فقدان إنساني.

لو كانت لي أمنية أخيرة لحاولت أن أخبر كل سكان الأرض أن لحظة النهاية قاسية، قاسية جدًا بما نفارق به الكون وهو حبيس قلوبنا، بما تمنيناه بكلمة وحيدة أخيرة «سامحني»، أن النهاية قاسية بما تمنينا أن نخبر به أحدهم وأجلناه أو خبأناه داخلنا حتى فات موعده، أن النهايات تأتي دون توقع، وأن كل أمنياتنا عند الفراق تزيدنا ألمًا.

لو كانت لي أمنية أخيرة لتمنيت أن أقنع نفسي ويقتنع الجميع أن كلمة واحدة، كلمة واحدة فقط قد تؤذي ضمائرنا عمرًا أو تريحها، لكننا ندرك هذا متأخرين.. متأخرين جدًا.

* * *

في كل مرة كنت أسأل فيها أبي «رحمه الله»: «أنت كويس؟»، كان يبادلني السؤال بنفس السؤال: أنت كويس؟ فأضحك ويعيد هو نفس التكملة «طالما أنت كويس فأنا كويس»، لا أتذكر أن قلت في قلبي مرة عظمة الإجابة، حتى رحل أبي ورحلت معه قيم عظيمة لي، كان من بينها «أنت كويس؟»، وأدركت أننا قد نكون «كويسين» رغم تعدد ما هو عكس ذلك بداخلنا فقط برؤية الأقربين لنا بخير، وقد نستمد قوة المقاومة لما نريد بما أقنعونا هم أننا قادرون عليه، أدركت أن بنا مثلًا يستطيع أن يتحمل جبالا من التعب إن كان عامرًا بالمحبة، بقدرة التسامح، بما يجعلنا نغمض أعيننا ليلاً أو أبدأً مرتاحي البال، مثلًا قد يجعلنا نحمل الأرض بأكملها على أكتافنا، ونتحمل كل ما فيها من سخافات.. مثلًا يدعى القلب.

* * *

فهرس الموضوعات

إهداء ٥٥

مقدمة ٧٧

كيف يحدث البعد الأخير؟ ١١

حكايات ليست عابرة ١٩

ما لا يُجدي فيه الأسف ٢٥

أن نستهلك أرواحنا ٢٩

شكل النهايات ٣٥

المحبة لا تقبل المساومات ٤١

لا سبيل آمنًا للهروب من أنفسنا ٤٥

اعترافات ٥١

الفقدان ٥٩

أن تجد روحًا ترافقك في الغياب والحضور ٦٣

بقايا الحكايات ٦٩

طمأنينة البشر خادعة ٧٣

قيمة وجودك ٧٩

تناقضات ٨٥

يحكمنا العقل أم يؤذينا القلب؟ ٩١

حكمة الوقت المناسب ٩٥

هل نحن أقوياء بما يكفي؟ ١٠١

التقبل ١٠٧

السند ١١٣

ظلم النفس ١١٩

العوض ١٢٥

المفاتيح التي فقدتها ١٣١

1. الغلاف
2. حكايات البعد واللقاء
3. وائل نيل : حكايات البعد واللقاء، كتاب ا...
4. وائل نيل
5. إهداء
6. مقدمة
7. كيف يحدث البعد الأخير؟
8. حكايات ليست عابرة
9. ما لا يُجدي فيه الأسف
10. أن نستهلك أرواحنا
11. شكل النهايات
12. المحبة لا تقبل المساومات
13. لا سبيل آمنًا للهروب من أنفسنا
14. إعترافات
15. الفقدان
16. أن تجد روحًا ترافقك في الغياب والحضور
17. بقايا الحكايات
18. طمأنينة البشر خادعة
19. قيمة وجودك
20. تناقضات
21. يحكمنا العقل أم يؤذينا القلب؟
22. حكمة الوقت المناسب
23. هل نحن أقوياء بما يكفي؟
24. التقبل

25. السند

26. ظلم النفس

27. العوض

28. المفاتيح التي فقدتها

29. فهرس الموضوعات